الرجوع الى الطبيعة
وأثره فى التهذيب العام *

للأستاذ عبد المنعم خلاف

سيداتى سادتى :

لقد بعدت المسافة بين نفوسنا و بين الطبيعة التى منها مبدؤنا و إليها مرجعنا وفى أحضانها نشأنا ودرجنا .

وطالما نسينا أن نتفرغ لها بعض الوقت ونأنس بقربها ونتمتع بمباهجها ونتلقى عنها مباشرة أذواق الأيمان الأصيل ودروس العلم الحق وفنون الشعر العميق وعظات التجارب البالغة .

لقد قنعنا بأن نزورها فى لحظات خاطفة ومناسبات عابرة ، وأن ننظر إليها (محفوظة فى علب) ومنقوشة فى لوحات ومحبوسة فى ألفاظ ، وأهملنا تقليب حواسنا وأفكارنا وأيدينا فى مشاهدها ومسارحها ومعاهدها . مع أن الله تبارك وتعالى لم يأت بنا إليها ولم يدخلنا إلى رحابها إلا لنرمى بأنفسنا وأفكارنا دائما إلى رحابها فنعلم آثار علمه وقدرته و براعة صنعته فيها قبل أن يخرجنا منها و ينقلنا الى عجائب عالم آخر ..

ومنذ أن حبستنا منازلنا بسقفها وجدرانها عن رؤية الآفاق العريضة والسموات العجيبة ، والجبال الشامخة ، والبحار الرحبة ، والصحارى الشاسعة ، والأضواء الطليقة ، والظلمات المطبقة ، والبرارى الجدبة ، والحقول الخصبة المرعة ، والغابات الحافلة ، والأمطار الدافقة منذ ذلك كله أصبنا بضيق الأنفس وصدأ الحواس وجمود المشاعر وعقم الخيال وضآلة الأجسام وخمود القوى وهمود العزائم وضعف الاعتماد على النفس وفقد القدر اللازم من قوة الكفاح التى لابد منها لمن يريد أن يعيش عزيزا محترم الحقوق ، وشغلنا بأسباب السأم والملل والتشاؤم والسخط . وشعرنا بثقل وطأة الحياة على أعصابنا وأرواحنا ، وضاقت علينا الأرض بما رحبت . وود كثيرون منا ان لم يخلقوا وتمنوا أن يرحلوا عن الحياة بالوسائل المشروعة وغير المشروعة .

و إنى أعتقد أن أكثر آلام النفوس والأجسام ، وأسباب الضيق والمرض ، منشؤها البعد عن الطبيعة وعدم الرجوع إليها بالجسم والروح فى فترات طويلة .

وقد نسى سكان المدن أن أجدادهم الأقربين لم يكن بينهم و بين الطبيعة هذه الحواجز الصناعية الكثيفة وأنهم كانوا يتقلبون فيها دائما ، لذلك كانوا أقوياء الأجسام طويلى الأعمار ، شجعان القلوب مستقلى الإرادة رابطى الجأش فى مقابلة الأخطار صابرين على مشقات الحياة مع أنها كانت مشقات نكراء وعقبات عصيبة لا يكاد يقاس بها ما نلاقيه نحن

* أذيعت فى برنامج الوزارة

الان من صعاب وشدائد . وقد تحولت الحياة الأنسانية بمرافقها جميعا إلى حياة صناعية بينها و بين الحياة الطبيعية حواجز وعوائق ، فقد صار الملبس معقدا لايتفق مع قواعد الصحة ، وصار المسكن كذلك بعيدا عن البساطة التي توحيها الطبيعة ، وصار الناس يعقدون حياتهم ويراكمون تقاليدهم الصناعية يوما بعد يوم حتى استحالت إلى حياة كثيرة التكاليف تقاية الوطأة على الاعصاب ، مرهقة للنفوس بالمطالب النافهة الكثيرة شاغلة للاوقات بما لاطائل وراءه ولا نفع يرجى منه .

ويخيل لكثير من الناس أنهم كلما كثرت حياتهم تعقيدا وتلفيقا و بعدوا عن بساطة الطبيعة عظم حظهم من الحضارة والانتساب الى الحياة المدنية وزاد حظهم من السعادة تبعا لذلك ، وهذا لا شك خيال كاذب . فقد دلت التجارب على أن أكثر الناس حبا للبساطة فى مرافق الحياة الكمالية وأقربهم إلى الطبيعة هو أكثرهم نصيبا من السعادة النفسية والصحة الجسمية والألفة الفكرية والحضارة النفسية . لأنهم لم يبعدوا كثيرا عن الجو الطبيعى الذى وجد فيه أجدادنا الأولون الذين ورثنا عنهم الحياة ولا يزال فينا كثير من خصائر حياتهم ورواسب أمزجتهم ، ولا تزال مبادئ حياتنا فى الطفولة تميل إلى طلاقتهم وحريتهم وحبهم للطبيعة وقربهم إلى حيوانها ونباتها .

وإنكم لتجدون مصداق ذلك فى حياة كثيرين من الحكماء والعلماء أولئك الذين تحرروا من كثير من القيود الصناعية التى لا فائدة منها ورجعوا إلى مبادئ الحياة الطبيعية فى كل شئ ما أمكنهم ذلك ، فوجدوا لهذا لذة وسعادة آثروهما وفضلوهما على ما وجدوه لدى الناس من أسباب التعقيد .

وإننا بالطبع لاندعو إلى الشذوذ والخروج على النظم العامة التى ارتضتها الجماعة ، ولكننا ندعو إلى التخفيف من أحمال الحياة الصناعية كلما أمكن ذلك . وإلى العودة فى فترات كثيرة إلى الطبيعة لتتذكر المبادئ الأولية للحياة فلا تنساها ، ولتتمتع بلذة الحرية والانطلاق من القيود الكثيرة فى المسكن والملبس والمأكل والمجالس والتقاليد . فنترك سكنى المنازل بعض الأحيان ونسكن الخيام والأخصاص والعراء إن أمكن ذلك فى الحقول والصحارى وعلى شطوط البحار والأنهار وعلى قمم الجبال وعلى ظهور السفن والمركبات مثلا . ونترك بعض الأحيان المأكولات المعقدة التى ترهق المعدة والأحشاء إلى المأكولات الفطرية الساذجة التى لا تعدد فى موادها ولا فى كيفيات طبخها . ونترك الملابس الضيقة التى تمنع الهواء والضوء عن أعضاء الجسم وتحرمه المناعة والمقاومة وحرية الحركة . ونترك كثيرا من تقاليد

الزينة والنظرية التي اتفق عليها الناس فى حياة المدينة . حتى نألف حياة التجرد والخشونة ولا نفزع منها إذا اضطررنا إليها . وكثيرا ما يكون ذلك الاضطرار .

سيداتى سادتى :

إنكم لا شك تلاحظون أن فطرة الله التى فطر عليها الأطفال دائما تدفعهم إلى الطبيعة والبحث فيها والتعجب منها والسؤال عن سبب وجود كل شيء فيها وحدوث كل حادث، وإلى تجربة كل شيء وفتح كل مغلق وركوب الأخطار بالرغم من تحذير الأمهات والآباء والمعلمين .

فالأطفال مدفوعون بفطرتهم إلى التنبش فى كل شيء يصادفهم فى هـذه الدار العجيبة التى وجدوا أنفسهم بعد تيقظهم من ذهول الطفولة قد دخلوا إليها وعرفوا فيها الحياة من غير أن يعرفوا أسباب ذلك . فهم يجدون انفسهم مضطربين فى تلهف وشوق إلى السؤال عن كل شيء وسبب وجوده ونقصه وتكوينه وأسرار صنعه ونهايته وتخريبه ومصيره . إلى آخر تلك الأسئلة التى بعضها يحرج الآباء والمعلمين لما فيه من الدقة والصراحة والإلمام النافذ لمواضع السؤال مما لا يمكن أن يتناسب مع أعمارهم فى هذا الدور . كأن هذا الطفل كائن غريب عن هـذه الطبيعة . نعم هو غريب وليس غريبا . هو ليس غريبا بجسمه وتكوينه المادى عن هـذه الطبيعة . ولكنه غريب بفكره الذى يلوح لنا أنه شأن ليس من شؤون هذا العالم المادى والحيوانى المحدود .

فغرام هذا الطفل الأنسانى الصغير بالطبيعة والتعجب من كل شيء فيها والاتصال بها اتصالا وثيقا هو مفتاح العلم الحق والإيمان العميق . ولكن مع الأسف كثيرا ما يتحطم هذا المفتاح أو يصدأ فى يد الطفل الصغير لأنه لم يجد مرشدين لاستعماله . ولو لبيت رغبات الطفل دائما فى الأجوبة على أسئلته ولم يضق الاباء والمعلمون ذرعا بها وساروا معه إلى المجهولات التى يجب أن يعلمها ولم ينهوه عن كثرة السؤال وحاولوا دائما أن يشجعوه على اختبار كل شيء والسؤال عنه ، إذ لكان هذا الطفل على حبه الطبيعة والمضى فى الاهتمام بها طول حياته الآتية والأنس بالقرب منها والرجوع الى استفتائها ولم تنقطع الصلة بينه وبينها كما يحدث ذلك دائما . وإذ لفاد هـذا الطفل الناس ووضع أيديهم على مجهولات الكون أو ذكرهم من نسيانهم إياها . وجعلهم يواصلون جهادهم فى كشفها . ولكن أكثر الآباء والمعلمين يفرون من أسئلة الطفولة لجهلهم الجواب أو لضيق صدرهم عن سماع الأسئلة . وفى هـذا الفرار أول معول لهدم حب الاستطلاع فى نفس الطفل — (مع أن حب الاستطلاع أكبر سلوى وسلاح له فى رحلته إلى الحياة) . وفيه أيضا أول زلزل لثقته بالعقل البشرى . وأول باعث

له على الغفلة والاهمال وطمس قوة الملاحظة. وأول حامل له على المرور على مشاهدة الحياة مغمض العينين والفكر، وأول مسبب لانحراف قلبه عن الايمان بالله عن طريق الفكر المستنير والعلم الثابت الغزير .

فاحذروا سيداتى وسادتى أن تحولوا بين نفوسكم وأطفالكم وبين الطبيعة . بل القوا بأنفسكم وأطفالكم فترات طويلة فى أحضانها فى الربيع والخريف والصيف والشتاء حتى تتجدد حياتكم وأذواقكم بتجدد الفصول .

وقلبوا أفكاركم دائما فى مسارحها ومشاهدها العجيبة وحيوانها المتنوع ونباتها المتفرع. واملأوا أوعيتكم من كنوزها التى لا تنفد فإنها كنوز الصحة والقوة والجمال ورقة الشعور وسلامة الإدراك وعمق الإيمان .

ألقوا بأطفالكم دائما إلى رحابها فإنها مدرستهم وأساتذتهم وباعثة الإيمان والخشية والحب لربهم فى قلوبهم ، ووجهوا أنظارهم دائما إلى الفروق الدقيقة بين أنواع حيوانها ونباتها ، وشجعوهم على جمع ما يحبون جمعه من أعاجيبها فإن ذلك هو اللعب المفيد الشائق المهيىء لمستقبل سعيد . وعلموهم حب الحيوان ورحمته واعقدوا صداقة وثيقة بينهم وبينه حتى يشبوا وينشأوا على حبه ورحمته وعدم إرهاقه وتعذيبه . وعلموهم السباحة وقلاحة الأرض والرحلة إلى الصحارى وتسلق الأشجار والتلال والجبال وعلقوا أبصارهم بالسماء ونجومها ومشاهدها العجيبة حتى توسعوا خيالهم وتثيروا الدهشة من عجائب الدنيا فى نفوسهم .

إنكم إن فعلتم ذلك وثابرتم عليه خرج لكم جيل قوى الجسم سليم الطبع مؤمن القلب مثقف الفكر يحب العلم ويهتز للشعر والفن ويخلص العبادة لله الخالق البارئ المصور ويصلى له صلاة دائمة بالفكر والقلب قائلا : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) .

عبد المنعم خلاف